ما يَمْكث في الأرض

على الإنسان أن يقاتل من أجل الصحيح، دون الاكتراث بمعايير النصر والهزيمة
(فيصل درّاج، من رسالة خاصة بتاريخ ١٠ / ١١ / ٢٠٠٥)

خائفون على سوريّة؟

نَكْذب إذا قُلْنا العكسَ. فالولايات المتحدة (ودَعْكَ من كذبة «المجتمع الدولي»!) تقودُها منذ سنوات قيادةٌ موتورةٌ وصهيونيةٌ ومتعجرفة. وليس مستبعَداً أن تمارسَ على سورية ما مارستْه على العراق ـ حصاراً، وتجويعاً، وإذلالاً... واحتلالاً. وأطفالُ سوريّة لا يَحْظَوْنَ بعطفٍ يَفُوق ما حَظِيَ به نصفُ مليون طفل عراقيّ أُبيدوا بالحصار؛ وحين سُئلتْ مادلين أولبرايْت (وزيرةُ الخارجية الأميركية) قبل أعوام إنْ كان «يستحقّ» أن يموتَ هؤلاء لتحقيق الديموقراطية قالت: «I think it is worth it» («أعتقد أنّ الأمر يستحقّ»)!

كُلُّه في حُبِّ سيادةِ لبنان، وديموقراطيةِ سوريا والعراق، يَهُون. أمّا الأطفالُ العرب، فعلى طِيزِ بوش وإدارته، وكلينتون وإدارته!

ولكنّنا أيضاً خائفون من أن يحاولَ النظامُ في سوريّة أن يتفادى ذلك الاحتمالَ الرهيبَ بالتنازل أمام الطرف الغلط، أي الولايات المتحدة وإسرائيل (أو ما يُسمّى بـ«المجتمع الدولي»)، بدلاً من أن يتنازلَ أمام الشعبيْن السوري واللبناني. وبعبارةٍ أخرى، فإنّنا نَخْشى أن «تَتَقَذْفَن» (من القذّافي) التنازلاتُ السوريّةُ، بدلاً من أن «تَتَشَفْزَ» (من تشافيز، رئيسِ فنزويلا). وسنَشْرح ما نعنيه لاحقًا.

وخائفون أن تجتاحَ الثقافةَ السياسيةَ والشعبيةَ في سورية ما اجتاحَ نظيرَتَها في لبنان: من نزعةٍ «وطنية» تافهةٍ موجَّهةٍ ـ هي الأخرى ـ ضدّ الطَّرف الغَلَط، لبنان، بدلاً من أن تتوجّه ضدّ التوسُّعية الأميركية والاحتلالِ الإسرائيلي. فيُصبح كُلُّ سوريٍّ مَزْهُوًّا بعَلَمه، مثلما غدا كثيرٌ من اللبنانيين مَزْهُوِّين بعَلَمهم بعد ١٤ آذار، ويتحوَّلُ العَلَمان ـ السوري واللبناني ـ إلى حَلَبة المواجهة، الواحدُ منهما ضدّ الآخر (كما تَنبّأْتَ يا صديقي نزيه أبو عفش)؛ وكأنَّ حريةَ لبنان وحريّةَ سورية لا تتحقَّقُ واحدتُهما إلاّ على حساب الأُخرى، أو كأنّه يُمْكن أحدَ البلديْنِ أن يكون حرًّا حقًّا إذا كان الآخرُ ذليلاً محتلاً محاصَراً مجوَّعًا!

ولكنْ، هل يمكن أن يكون لبنانُ حرًّا، فيما سوريّةُ محاصرةٌ؟ أو العكس؟

بعد «الاستقلال» كَتَبَ أنطون سعادة: «في حالة الاستقلال الحاضرة، خَرَجت الأُمّةُ من القواويش التي كانت فيها. خَرَجت الأمّةُ من الحبوس في داخل البناية التي أَعَدَّها لها الاستعمارُ. ولكنّها، حتى الآن، لا تزال ضِمْنَ السُّورِ الكبيرِ الذي يحيطُ ببنايات السجن. نحن الآن خارجَ القواويش، ولكنّنا لا نزال ضِمْنَ السُّور!»[1]

مَن المسؤولُ عن انحدار مفهوم «الاستقلال» إلى هذا الدَّرك من التفاهة والانعزال ـ في «الثقافتيْن» معًا؟

طبعًا الممارساتُ السوريّةُ التعسُّفيةُ في لبنان، التي كادت أن تَحْجبَ الدعمَ السوريَّ الهائلَ للمقاومة الوطنية والإسلامية ضدَّ الاحتلال الإسرائيلي. ولكنّ المسؤولَ عن حالتنا الراهنة هو أيضًا نظامُنا الطوائفيُّ/الزبائنيُّ اللبناني، الذي تَحْسبُ فيه كُلُّ

←

١ ـ ضِمْن كتاب جان داية، سعادة وهشام شرابي (بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٤)، ص ٤٦.

طائفةٍ أو فئةٍ أنّ قوّتَها لا تأتي إلاّ على حسابِ الطوائفِ والفئاتِ الأخرى، ولو جاءت تلك «القوّةُ» من أطرافٍ غيرِ لبنانية ـ سوريةٍ أو إسرائيليةٍ أو أميركيةٍ...

التعسُّفُ السوري موجودٌ، إذن. والطوائفيّة / الزبائنيّةُ اللبنانيةُ المقيتةُ موجودةٌ، هي كذلك. لكنَّ الإدارة الأميركية الحالية لا تَهْدف إلى تخليصنا من ذاك ولا تلك. والديموقراطيةُ، على كلّ حال، هي آخرُ ما تفكّر الإدارةُ الأميركيةُ في تحقيقه لنا؛ بل هي تشجّعهما معًا إذا كانا يَخْدمانِ مصالحَها، ولو على حساب الحدّ الأدنى من الديموقراطية في البلديْن. وحسبُنا أن نُطالعَ بعضَ الصفحات من سجلِّ الولايات المتحدة في الديموقراطيّة وحريّة التعبير في أماكن أخرى من العالم. ولنتذكّرْ:

ـ أنّ حكومةَ الرئيس محمد مصدّق كانت منتَخَبةً ديموقراطيًّا في إيران. ولكنّ الرئيس مصدّق أَمَّمَ النفطَ لصالحِ شعبه، فاستحقّ الانقلابَ الأميركيَّ عليه.

ـ وأنّ هوغو تشافيز انتُخب ٦ مرّات، شعبيًّا، ويَحْظى الدستورُ الڤنزويليُّ اليومَ بدعمِ ثُلُثيْ أفرادِ الشعب بعد إجراءِ استفتاءٍ عامٍّ عليه.[١] ولكنَّ تشافيز استخدَمَ أموالَ النفط لإنشاءِ المدارس، وتطويرِ القطاع الصحّي، وتحسينِ معيشةِ الفقراء، بدلاً من خدمة الشركات والمصالح الأجنبية عامةً والأميركية خاصّةً. ولذا استحقَّ هو أيضًا اللعنةَ الأميركيةَ... مع أنّه بالأمس فقط عَرَضَ تقديمَ مليون دولار من النفط الڤنزويلي مجّانًا لمساعدة منكوبي إعصار كاترينا في الولايات المتحدة، فضلاً عن وحدتيْن استشفائيتيْن متنقّلتيْن، و١٢٠٠ خبير إنقاذي، و٥٠ طنًّا من الطعام![٢]

ـ وأنّ الإدارة الأميركية، بشخصِ بوش الصغير، تفكّر في قصفِ مكاتب قناة «الجزيرة» في قطر، لأنّ الآراءَ والتقارير التي تَعْرضها لا تناسبُ «حريّةَ التعبير» التي تنادي بها تلك الإدارةُ؛ مع أنّ مكاتبَ الجزيرة الأساسية تلك تقع في بلدٍ ديموقراطيٍّ أصيلٍ يُناسبُ ذوقَ بوش! وقد سَبَقَ للقوات الأميركية أن ضَرَبَتْ مكاتبَ الجزيرة في كابول (تشرين الثاني ٢٠٠٢) وبغداد (نيسان ٢٠٠٣)، وسَبَقَ أن قَصَفَت المظاهراتِ السِّلميةَ «الصَّدْرية» في بغداد، وأَغْلقتْ جريدةَ الحَوْزة الصَّدْرية.

ـ بل إنّ الإدارات الأميركية المتعاقبة سَكَتتْ عن الوجود السوري في لبنان نفسه، وشجَّعتْه طوالَ عقود، ولاسيَّما حين تقاطعتْ مصالحُها مع مصالح السلطات السوريّة إبّان الخلاف السوري ـ الفلسطيني (العرفاتي) والسوري ـ العراقي.

إنّ «الديموقراطية» (وضِمْنها حريّةُ التعبير) التي تُطالبنا بها الولاياتُ المتحدةُ اليومَ، تحت سيف الحصارِ والاحتلال والموت، هي محاولةٌ لتقديم «نصرٍ» ما للرأي العامّ الأميركي، يعوِّضُ قليلاً عن خسائرها الفادحة في العراق (٢١١٠ قتلى وحوالى ٢٥ ألف جريح ومعوَّق بحسب آخر التقارير الأميركية نفسها)، وعن عجزِ حليفتها إسرائيل عن سَحْقِ الشعب الفلسطيني والثأرِ لهزيمة الجيشِ الإسرائيلي في لبنان. ومعنى ذلك أنّنا، في سورية ولبنان والعراق وإيران وفلسطين، مازلنا نشكّل خطراً على الإستراتيجية الأميركية ـ الإسرائيلية؛ وهو خطرٌ مرشَّحٌ للتفاقُم بمزيدٍ من التحالف والتعاون.

---

١ ـ طارق علي، عن الإمبراطورية والمقاومة، حواراتٌ أجراها معه دايڤيد بارساميان، ترجمة سماح إدريس (بيروت: دار الآداب، يَصْدر خلال أسبوع)، ص ٧٥ من النسخة الإنكليزية الصادرة عام ٢٠٠٥ عن The New Press في نيويورك.

٢ ـ Mike Whitney, "Hugo Chavez and George Bush," www.aljazeerah.info/opinion%20editorials/2005.

لكنَّ قوّتَنا لن تبلغَ مداها إذا اقتصرتْ على التحالف الرسميّ وحده، أو إذا استمرّ تغييبُ المجتمعِ الأهلي العربي عن ساحة المواجهة. وفي ما يخصّ سوريةَ، تحديداً، دَعْنا نسأل الرئيس بشّار الأسد الأسئلةَ التالية:

ـ ما هو، يا سيادةَ الرئيس، مبرِّرُ الإبقاء على عالمٍ اقتصاديٍّ لامعٍ مثل الدكتور عارف دليلة في السجن؟ وما هو مبرِّرُ سَجْنِه أصلاً؟ وكيف تُقاتلُ سوريّةُ، وأمثالُ دليلة وحبيب عيسى في السجون السورية؟

ـ وما هو مبرِّرُ الإبقاء على قانونِ الطوارئ، وسوريّةُ تحتاج اليومَ إلى كلِّ قطرةِ عرقٍ لمواجهة العدوان المحتمل... ناهيكم بأنّ الحرية ـ في ذاتها ـ أمرٌ لا معنى للحياة بدونه؟

ـ وما هو مبرِّرُ بقاء الآلاف من الأكراد السوريين مُسْتثنين من الجنسية بموجب الإحصاء الذي جرى عامَ ١٩٦٢، مع أنّكم وعدتُم بإعادة النظرِ فيه؟ وكيف تُمْنعُ الجنسيةُ الوطنيةُ السوريةُ عن مواطنين استُشْهد أسلافُهم في التصدّي للحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر، واستُشْهدَ العشراتُ منهم في غيرِ مكانٍ من لبنان (مثلِ قلعة الشقيف) إلى جانب شهداء المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، بل وفي حربِ تشرين نفسها أيضاً؟

ـ وما هو مبرِّرُ بقاء العشرات من المعتقلين اللبنانيين في السجون السوريّة؟ نحن نَعْلم أنّهم (أو بعضهم) موجودون هناك، ولا نَعْلم ما هي التُّهمُ الموجَّهةُ إليهم أصلاً. ولكنّنا واثقون بأنّ الإفراجَ عنهم دونما إبطاء سيؤثّر إيجابًا على العلاقات اللبنانية ـ السوريّة، وسيَنْزع أشواكًا كثيرةً في خاصرةِ سورية المحاصَرةِ اليومَ بالإملاءات «الدولية.»

إنّ اعترافَ الوزير الشرع في برشلونة مؤخّراً (٢٩ / ١١ / ٢٠٠٥) بلبنانية مزارع شبعا قد زَرَعَ آمالاً جديدةً في قيام علاقاتٍ أفضل بين سوريا ولبنان. ويبقى الأملُ الأكبرُ في قيام مبادراتٍ سوريةٍ أُخرى تَنْزع أوراقَ المتاجرة الإضافية من أيدي «السوبر ـ حريصين» على سيادة لبنان وديموقراطية سوريا.

التنازلُ أمام الشعبيْن السوري واللبناني: ذلكم هو ما يتوقُ إليه معظمُ اللبنانيين والسوريين، وهو ما سيعزِّزُ منعةَ البلديْن ويَكْسرُ أسوارَ السجن التي تحيط بالقاووشِ اللبناني ـ السوري المشترك. أما الاتفاقاتُ بين سوريا و«المجتمع الدولي،» حتى لو حصلتْ، فأمَدُها قصيرٌ، وأثرُها عابرٌ.

سماح إدريس
بيروت

إلى المشتركين والمشتركات

لم تُصدر الآداب هذا العامَ إلاّ خمسةَ أعداد بدلاً من ستة، لكنّها أصْدرتْ ما مجموعُه ٥٧٦ صفحة كعادتها في كلّ سنة (أيْ ما يوازي ستةَ أعداد، بمعدّل ٩٦ صفحة لكلّ عدد). فاقتضى التنويه.